مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة

العدد التاسع

1992 م.

وضع المرأة في العالم الإسلامي(*)

الأستاذة سالمة شعبان الجبار
جامعة الفاتح - الجماهيرية العظمى

هذا العنوان الذي اتخذ أساساً لعدد من الدراسات والأبحاث يثير العديد من الأسئلة والتي تبدو بديهية في هذا السياق وهي تنطلق من رؤية محددة لما يسمى «قضية المرأة» أو ما يعرف بمشكلة المرأة. إذ كيف نستطيع أن نتصور هذه المسألة منعزلة عن غيرها من مسائل الوجود الإنساني الأخرى، ما مصدرها؟ ما هي أبعادها كموضوع خاص ومتميز وما علاقتها بباقي إشكاليات المجتمع الإسلامي الأخرى السياسية والاقتصادية والتاريخية والقانونية.. وما علاقة هذه القضية بمفهوم التحرر أو الحرية في تحديد الخصوصية الحضارية للمجتمع الإسلامي وما يفرضه السياق التاريخي للأمة الإسلامية في مجتمعاتنا المعاصرة من إشكاليات مختلفة أهمها إشكالية المرأة المسلمة والسؤال هو: هل تطرح المرأة المسلمة مشكلة هي وهم شأن كل الأوهام الأسطورية والغيبية، أو تُعاني من واقع وجود مضطهد ومنفي من

(*) قدم هذا البحث في ندوة «وضع المرأة في العالم الإسلامي» بالقاهرة 19 ـ 21 من شهر أغسطس 1991 التي نظمتها المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم بالتعاون مع جمعية الدعوة الإسلامية.

الفعالية والمشاركة؟ هل هي رهينة تاريخ من اللامبالاة والقهر؟ وقبل البداية في هذه الدراسة لا بد من ذكر حقيقتين:

الأولى: أنه ليس للمرأة وليس للرجل تاريخان منفصلان فهما صانعا تاريخ مشترك، وتاريخ المرأة لا ينفصل عن تاريخها الاجتماعي التاريخ المشترك بينها وبين شريكها الدائم.

أما الحقيقة الثانية: فإن قضية المرأة في المجتمع الإسلامي المعاصر أصبحت تشكل خطورة تاريخية إذ ارتبطت بما شاع حول «قضية التحرر النسائي» أو ما يسمى «حركات التحرر النسائية» وفهمت على أنها تحرر من أوضاع تقليدية حالت دون مسايرتها واتباعها لأنماط حديثة زرعتها في المجتمع الإسلامي ـ وفي بلدان العالم الثالث ـ الحضارة الصناعية الرأسمالية التي استعمرته ردحاً من الزمن وبهرته بما تملك من مصادر القوة والتحكم والتنظيم.

هذا الأمر يرتبط بنمط من الحياة الزاحفة من تلك المجتمعات الأوروبية الغالبة تقليداً لها. ومن هنا ظهر هناك اختيار حقيقي للمرأة في اصطناع الأنماط الجديدة بعد كسر الأنماط القديمة، وفي التناقضات والتوترات الفكرية والواقعية بين هذا التحرر من التقليدي من ناحية واتباع نماذج جاهزة لمجتمعات مسيطرة من ناحية أخرى وبذلك تشعبت عنها تيارات مطالبة بحقوق نخبة من النساء المنخرطات في إطار التقدم الأوروبي. وتاهت قضايا المرأة الحقيقية التي تنتمي إلى الإسلام عقيدة وسلوكاً مما أدى إلى أن عملية إدماج المرأة المسلمة في قضايا المجتمع ظلت محدودة ولم تستكمل حلقاتها وفاعليتها بل دخلت في عناصر مزيفة في الوعي والمطالب في نطاق بعض الطبقات الاجتماعية من نساء ينتمين إلى واقع لا تنتمي إليه الغالبية العظمى والكادحة من النساء. ودون أن تستوعب بوعي متكامل الجهات والتحديات المختلفة للنهضة الحضارية الإسلامية بأبعادها المعاصرة وخصوصياتها الثقافية والتي يحمل الواقع الإسلامي الراهن في طياته مزيجاً مؤلماً من أشكال القهر في الهوية الدينية أو الانتماء الحضاري وفي سلامة الأرض وحرمة المقدسات وفي الاستقلال من التبعية واستقلال الوطن وحرية المواطن في القول والفكر والعمل ويشترك في تحمل هذا القهر الرجال والنساء.

وفي ضوء كل ذلك تصبح قضية المرأة جزءاً لا يتجزأ من قضية المجتمع كله ومعركتها موقعاً ملتحماً مع مختلف المواقع في معركة تحرير الأرض والإنسان وتسخير الموارد تسخيراً يحقق الرفاهية لجميع المواطنين من خلال مشاركتهم الفعالة في صناعة حاضرهم واستشراف مستقبلهم أجيالاً بعد أجيال. وفي هذا السياق نعود إلى القول بأن ما يسمى قضية المرأة إنما يجب أن تتحرك مع غيرها من قضايا النهضة والتقدم لخلايا المجتمع الإسلامي.

وفي هذه الورقة سوف نراقب من خلال التاريخ الإنساني رحلة المرأة لتقدير مكانتها والاعتراف بحقوقها عبر مراحله المختلفة لنقف أمام واقع المرأة المسلمة ودور الشريعة الإسلامية في توفير ضمانات إنسانية لحياة المرأة ونكتشف هذا التميز في تاريخنا الحضاري لحركة المرأة وانطلاقها نحو آفاق رحبة في المجتمع لخوض مجالات عديدة، كذلك نقف أمام التيار الآخر وهو هذا الاتجاه التغريبي الذي تستلب فيه المرأة بدعوى التحرر لتتخذ من المرأة الأوروبية المثال والنموذج، هذه القراءة التاريخية ستكشف لنا عن طبيعة الحلول التي تطرحها الجماعات السلفية حول المرأة باعتبارها حركة الصحوة الإسلامية وهي تدور أيضاً في فلك الاستلاب والارتماء اللاواعي الخالي من العقل والمنطق في هذا الكم الهائل من التراث في مجال الفكر الديني الذي كان خاضعاً في كل مراحله التاريخية لقضايا السياسة وأمزجة الحكام وأهواء السلاطين والأمراء وتأويلات مفسريهم.

المرأة في التاريخ القديم بين الدين والأسطورة:

إذا رجعنا إلى أقدم ما نعرف من عصور التاريخ رأينا للمرأة مكانة وشأناً حيث شاركت الرجل حياته منذ بداية المجتمع الإنساني، ثم ما لبثت أن ظهرت عوامل جديدة في حياة الإنسان أدت إلى افتراق المرأة عن الرجل في العمل والنظرة والحياة بحيث لم يعد يصح القول بأن تاريخهما تاريخ واحد[1].

وقد ارتكزت مكانة المرأة على ما عرف «بالمجتمع الأمومي» كأساس

(1) بحث قدمته راي ستراتش Ry Stratchi في كتاب تاريخ العالم لمؤلفه «جون هامرتون» م: ص 381 ترجمة محمد الدسوقي مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1970 م.

للحضارات القديمة، حيث قدم العديد من رواد الانتربولوجيا والعلوم الاجتماعية في دراساتهم الأدلة الكافية على وجود شكل أقدم من أشكال العائلة سبق الشكل الأبوي الحديث، هذا الشكل إنما كان يقوم على قيم الأنوثة ومكانة الأم.

فالمجتمع الإنساني لم يؤسس بقيادة الرجل المحارب الصياد بل تبلور تلقائياً حول الأم التي شدت عواطفها ورعايتها الأبناء حولها في أول وحدة إنسانية في العائلة كما عزز دورها الاقتصادي مكانتها فكانت المنتج الأول في الجماعة خاصة بعد اكتشاف الزراعة ونقل الإنسان من مجتمع الصيد والالتقاط إلى مجتمع الإنتاج.

لقد قدم باخوفن «Bkhoven»[2] وهو من علماء القرن التاسع عشر 1815 ـ 1887 صورة عن المرأة في المجتمعات القديمة في كتابه «حق الأم» الذي يشير فيه إلى المكانة التي كانت تحتلها المرأة وما كانت تتمتع به من قوة سياسية وقانونية وسلطة اجتماعية، وقد اعتمد «باخوفن» في كتابه هذا على دراسة وثيقة لأساطير الشعوب القديمة وآدابها ولغاتها والظاهر هنا أن المجتمعات القديمة كانت أقل نفوراً وأكثر استعداداً من بعض المجتمعات الحديثة لقبول فكرة دور المرأة في الحياة العامة. يتمثل ذلك في الأساطير الدينية التي تعتبر ذاكرة الشعوب والتاريخ لتطور الإنسانية، فمنذ أن صنع الإنسان أدواته الحجرية الأولى وصنع تماثيل آلهته ومنذ أن بنى مساكنه كانت المرأة إلى جانبه في حقل القمح الأول، وقفت إلى جانبه يداً بيد وفي المدن الأولى المستقرة استرخت إلى جانبه في المعابد بعد أن لهثت معه وراء اللقمة النادرة[3].

لقد بدأت كل الديانات القديمة بالإلٰهة «الأنثى» فكل سر من أسرار الطبيعة وحكمها وصورها وعلاقتها بالقوى الخفية كل ذلك تعرضت له الإلٰهة الأنثى وأشارت إليه عن طريق كاهناتها اللواتي كن منذ البداية صلة الوصل بين البشر والإلٰه وبذلك لعبت المرأة الدور الأول في تاريخ الحضارات القديمة.

---

(2) J.Bachofeni: Religion and Mother Right, p. 158 New York.

(3) توفيق سليمان تاريخ الشرق الأدنى القديم ص 265.

لقد كانت الإلٰهة الأنثى تمد الإله الذكر بالحكمة الأصيلة هذه الحكمة كانت سر النجاح «زيوس Zose» إلٰه الحكمة عند اليونان لم يكن يملك حكمة أصلية بل إن حكمته مكتسبة من الإلٰهة «ميتس Meetess» وهي أولى زوجات زيوس وهي التي وصفها «هزيود» صاحب أصول الآلهة بأن لها من الحكمة أكثر مما لكل الآلهة مجتمعين[4] أما إلٰهة اليونان «ديوتيما» فكانت تمثل حكمة الفلاسفة فقد عزي إليها تعليمهم فلسفة الحب والجمال وكيف ينتقل الإنسان من معاينة الجمال المادي الطبيعي إلى الجمال السرمدي «ديوتيما» كانت تمثل الإلٰهة الأنثى وحكمة الأم الكبرى التي بقيت تمد قلوب الرجال بالحكمة والفلسفة كما كان للمرأة دور بارز في مجال السيطرة الدينية على عالم يموج بالأسرار والخفايا إلى جانب دورها الطبيعي باعتبارها الإلٰهة الأم فهي التي تهب القمح وتمنح الخصب والفيض للطبيعة وقد صورت التماثيل الإلٰهة الأنثى كأبهى سيدة للطبيعة في تاريخ مصر القديمة تحت اسم «إيزيس» ولها في الميثولوجيا الدينية أسماء عديدة فهي: سيدة القمح وأول من اكتشف الزراعة.

خالقة كل نبت أخضر «الإلٰهة الخضراء» سيدة الخبز وحقل القمح وهي في هذه الأعمال قد رفعت بيديها باقتين من سيقان القمح أو زينت رأسها بالسنابل ويظهر أوزيريس إلى جانبها أخاً وزوجاً وابناً وحبيباً وشريكاً في خصائص الخصب وإلهاً أسيراً لدورة القمح والإنبات وبعد أن اكتشفت إيزيس القمح أعطت باقته الأولى لأوزيريس الذي قام بتعليم البشر الزراعة، حيث بدأت مهمته في تعليم البشر وإرشادهم إلى كيفية صناعة أدوات الزراعة واستخدامها في استنبات القمح[5] ففي هذه الصورة المادية ينقلب المادي ـ القمح ـ إلى روحاني علوي، فتصير الإلٰهة الأنثى سيدة الخلق في عالم الطبيعة، هذا الأمر يعني أن انطلاق الأنثى من عالم المادة إلى عالم الروح (الآلهة) لا يعني تنكراً لكل رابط أرضي وقطيعة مع الطبيعة بل هو اتجاه روحاني عكس روحانية الإلٰه الذكر التي كانت تنطلق دوماً من المادة لتبقى مخلصة له لقد كان كل تصعيد للأنثى يبدأ من الجسد لا من الذهن

---

(4) هوميروس: الترجمة الكاملة لنص الأوديسة ترجمة أمين سلامة ص 95 دار الأدباء ـ القاهرة 1969.

(5)ج ويلسون بدج: الديانة الفرعونية ص 73 ترجمة يوسف اليوسف دار المجد بيروت.

المجرد وكل ارتقاء نحو الأعلى يبدأ من النزول إلى أعماق النفس من هنا كانت الأنثى تقدم الإطار الديني الذي استوعب تجارب الإنسان القديم واضعة الجسد في إطاره كظاهرة طبيعية، هذه الظاهرة إنما تجسد قيمة العطاء الأنثوي من خلال التجربة الدينية التي كانت العامل المسيطر على كل أركان الحياة في المجتمع القديم، واتخذت من عطاء الطبيعة صورتها الجوهرية، ففي أرض الرافدين كانت الأجرام السماوية، الشمس والقمر في دورتهما الطبيعية تبجل في شخص الإلٰهة عشتار التي كانت ترمز للأرض والأم قد كانت عبادة هذه الآلهة بالغة الاهمية داخل حدود وادي الرافدين وخارجها وقد نشأت حولها سلسلة طويلة من الأساطير كرست لها من حيث إنها إلهة الحب والعطاء وبعث الأشياء بعد الموت والفناء تقص الأساطير كيف أن الإله الرجل يموت ثم يبعث من جديد بفعل «حب عشتار»، هذه الأساطير بالغة الدلالة من الناحيتين الدينية والأدبية، حيث تقص علينا نزول «عشتار» للإتيان بالرجل من وراء الموتى تذكر أسطورة «جلجامش» كيف رفعت الإلٰهة الأنثى «أنكيدو» إلى عالم المعرفة من مستوى الحيوان إلى مستوى الإنسان[6] بعد أن عاش مع رسولة «عشتار» وكيلة حكمتها «وجلس عند قدميها رافعاً بصره إليها وكله آذان لما تنطق به وغدا عارفاً واسع الفهم عميقه»[7].

«أنكيدو» الرجل في جلجامش هو «أدونيس» في أساطير البحر المتوسط وهو «أوزيريس» في مصر وهو «أتيس» في آسيا الصغرى زوج الإلٰهة «كيلى» الأم الكبرى الذي مات بفعل قوى الشر كما تصور الأسطورة ذلك، ثم يقوم من الموت بفعل الأنثى قوى الخير والحياة وهو «تموز» الإله المشهور العائد في الظلام ودروب الموت «حبيب عشتار»[8] وتعتبر ملحمة جلجامش من أقدم الروائع التي اهتمت بتحليل العلاقة بين الرجل والمرأة وتحليل دور الإلٰهة الأنثى، حيث كانت العلاقة بين «أنكيدو» الرجل والمرأة زوجته هي نموذج أسطوري لما تم بالفعل منذ جذور التاريخ والممارسة الجنسية التي تمت بينهما والتي كشفت بصيرة أنكيدو فجعلته حكيماً عارفاً وأبعدت عنه رفاق الأمس من الحيوان لم تكن العلاقة الجنسية التي

---

(6) وديع بشور: ملحمة جلجامش ص 181 مؤسسة فخر للطباعة 1977.

(7) المصدر السابق ص 190.

(8) انطوان موتكات: تموز عقيدة الخلود في الشرق القديم ترجمة توفيق سليمان ص 295.

يمارسها الإنسان كل يوم بل كانت رمزاً للكدح الذي بذلته المرأة من أجل تعريض الرجل للعوالم التي اكتشفتها قبله وجذبه من دائرة الجوع والشبع المغلقة التي يشترك فيها مع الحيوان إلى دائرة الجمال المفتوحة على العالم الآخر العالم الإلٰهي[9] ولتأكيد دور الإلٰهة الأنثى في نشر الحكمة والفلسفة تشير المعاجم الفلسفية إلى أن كلمة «صوفيا» التي أطلقت على الفلسفة «فيلوصوفيا» إنما هي من إلٰهة الحكمة «صوفيا» وتشير الدراسات الفنية إلى هذا الجانب عندما تصور المرأة «صوفيا» جالسة وعلى رأسها تاج على هيئة ثلاثة رؤوس أنثوية وحولها الفنانون والأدباء والفلاسفة يستمدون منها الوحي وفي عمل آخر هي سيدة جليلة القدر كاملة اللبس تخرج ثدييها في وضع عطاء وترضع رجلين حليب الحكمة، وفي عمل ثالث نراها على هيئة امرأة متوجة تمسك بيدها اليسرى صولجاناً وباليمنى كتاباً مفتوحاً ومن قلبها ينفجر تيار من الماء يتلقفه تحتها بأفواههم موسيقيون وعلماء وفلاسفة، وهكذا يتحول حليب الأم الكبرى من ثدييها ليسقي الأرض ويعطي البشر غذاءهم الأرضي إلى جانب حليب الحكمة الذي يهبهم الغذاء الروحي[10].

وحول دور الأنثى في تحديد المعالم الأساسية لسياسة الدولة ودورها في تأكيد الحق والعدل والمساواة والحرية تشير الأساطير والدراسات التاريخية إلى الدور الذي لعبته الأنثى في عهد «أخناتون» الفرعون الداعي إلى التوحيد في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد إذ كانت تعاليمه منجذبة بالكامل نحو إله الشمس «أتون» وهو الراعي الشجاع الذي يرعى قطعانه، وفي هذا الأمر إشارة واضحة لدعوة أخناتون الدينية إذ كانت تمثل حركة الإصلاح الاجتماعي التي ظهرت في تلك المرحلة في التاريخ القديم إله أخناتون المسمى «أتون» هو نور الشمس لكن «ماعت» إلٰهة العدالة والمساواة هي التي كانت تعيش على العدالة والمساواة وقد أشارت النصوص الدينية في تلك المرحلة إلى أن كل الآلهة كانت تعيش على عدالة ماعت «إني أعيش على الصدق وأتزود من صدق وعدالة ماعت»[11] كان أخناتون يذيل اسمها الملكي الرسمي في كل آثار الدولة بهذا التوقيع «العائش على

---

(9) فراس السواح: مغامرة العقل الأولى ص 75 دار الكلمة بيروت 1981.

(10) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ص 160 دار الحوادث بيروت 1965.

(11) كتاب الموتى الفرعوني: ترجمة فيليب عطية ص 10 و 15 مكتبة مدبولي مصر.

عدالة ماعت» وهذا النعت الهام الذي ألحق به اسم أخناتون عاصمة ملكه الجديدة في «تل العمارنة» مقر الصدق ماعت[12] وفي الدولة السومرية القديمة كانت الألواح السومرية تصور الإلٰهة الأنثى «شمس» إلٰهة العدالة والمساواة في سومر ببلاد الرافدين وهي تمر بمركبة حول العالم لترى أعمال الناس من فوق وتعطي النور وتفتش عن القلوب الحزينة وتعطي الشرائع وتهب الحياة للضعفاء والمظلومين وترعب الأشرار كانت الإلٰهة الأنثى «شمش» تنادي بكل ما هو أخلاقي وتدعو إلى قيم الحق والعدل والحرية ويشير S.Kramer[13] الباحث المتخصص في دراسة الآثار السومرية أن أول وثيقة في التاريخ تذكر الحرية باسمها السومري أمارجي Amargee وجدت في سومر وهي تعني حرفياً العودة إلى الأم، هذا الأمر يعطي القيمة الجوهرية للأم الأنثى التي تعني الحرية والمساواة ويمثل الخروج عن الأم الأنثى الخروج عن هذه القيم والسقوط من براثن الفساد والتسلط.

إن هذه النماذج قد نظرت للمرأة نظرة مغايرة لما هو سائد الآن في مجتمعات العلم والتقدم التقني تلك المجتمعات كانت تنظر إلى الأمور وفق مقياس طبيعي ضمن دائرة الكون وما به من جزئيات في الأرض والماء والكواكب والنبت الأخضر والفيض الطبيعي وما إلى ذلك، لقد كان هذا العالم الواسع متجسداً في الأنثى المفكرة المعطاءة، العالمة، والحكيمة، الكاهنة، والعرافة هذه الأنثى تستمد من الطبيعة حقيقتها، وكانت الطبيعة تتبع في دورتها في الخصب والفيض والنماء دورة الأنثى في الخلق والتكوين، لقد كانت الحضارات القديمة هي الوجه الأول للتاريخ حتى قبل ظهور الأديان الكبرى السماوية وهي مما لا شك فيه قد نظرت للمرأة نظرة أكثر موضوعية فالمرأة هي أم الأنبياء والرسل أم موسى عليه السلام التي لعبت.دوراً أساسياً في هذا الاتجاه الديني وهي أم المسيح عيسى ابن مريم العذراء التي حملت على عاتقها وحدها ولادة هذا النبي بفعل من إرادة السماء ـ إرادة الله وحده ـ وهي أم محمد الرسول الكريم ﷺ حملت به وأرضعته وهي خديجة التي

---

(12) هنري برستيد: فجر الضمير: ترجمة سليم حسن ص 129. وقارن هنري فرانكفورت وآخرون «ما قبل الفلسفة» ص 103 ترجمة جبر إبراهيم جبرا دار الشروق بيروت 1980.

(13) صموئيل كريمر S. Kramer ألواح سومر ترجمة طه باقر ص 153.

(14) سورة النساء، آية: 1.

احتضنت دعوته وهي أسماء التي كانت وحدها القادرة على سره الدفين، وما كان لهذه الدعوة أن تستمر لولا هذه المؤازرة والاحتواء الأنثوي الذي أراده الله سبحانه وتعالى.

في هذا الإطار سوف نعطي للموضوع تفصيلات أكثر من خلال إبراز دور الإسلام في إعلاء شأن المرأة واحترام مكانتها وتقديسها لنكتشف جوانب الإشراق في تاريخ المرأة في الإسلام.

المرأة في الإسلام: بين نور الوحي وإشراق النبوة:

لتأكيد مكانة المرأة واحترامها أفرد القرآن الكريم لها سورة خاصة أطلق عليها سورة «النساء» علاوة على سور أخرى أوردت حقوقها.وأوضحت مكانتها وأوصت بالعناية بها وأبرزت دورها في الحياة في سور: الطلاق ـ المائدة ـ النور ـ الأحزاب ـ المجادلة ـ الممتحنة ـ وإذا اعتبرنا أن سورة النساء هي الدستور الخاص بالمرأة نجد أن أول مواده أي أول آياته هي التي تقرر الحقيقة الأولى وهي مسألة خلق المرأة، والتي تستهدف مساواتها مع الرجل في الخلق فقد خلقت كما خلق **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾**[14]. إن المتأمل في هذه الآية يجد أنها أوردت الخلق ثم من نفس واحدة، وتأكيداً لهذا المعنى فإن القرآن لم يذكر المرأة إطلاقاً على أنها زوجة الرجل وإنما هي زوج الرجل أي نصفه المتماثل الذي يكتمل به كما أنه أيضاً زوج المرأة وذلك في ضوء الآيات **﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾**[15] **﴿فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه﴾**[16].

لقد اعتمد الإسلام فلسفة متميزة في إطار تحرير المرأة مما كانت تعانيه من ظلم الجاهلية فلم يفصل بينها وبين الرجل كشقين متمايزين متكاملين. وسوى القرآن الكريم بين المسلم والمسلمة في الإيمان بالله والصلاة والصوم والحج

---

(15) سورة البقرة، آية: 102.

(16) سورة الأنبياء، آية: 90.

والزكاة وفي الخير والتعاون والرحمة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي الشورى والحسنة والسيئة، في العلم والعمل في الدنيا والآخرة، ومن خلال قراءة مستوعبة للقرآن الكريم والأحاديث الصحيحة نكتشف هذه الحقيقة: فالرجل والمرأة متحدان روحياً:

﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ [سورة البقرة]. والرجل والمرأة متساويان في العمل والأجر: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [سورة النحل]. والرجل والمرأة متساويان في الجهاد والاستشهاد والجنة: ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ [سورة آل عمران]. والرجل والمرأة متساويان في الإيمان والصلاة والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله وأولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾ [سورة التوبة]. وللمرأة الحق الكامل في المجادلة وإبداء الرأي والدفاع عنه:

﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾ [سورة المجادلة]. وللمرأة الحق في أن يكون لها كيان مستقل ودور سياسي تشارك من خلاله في صنع القرار دون تبعية لأحد فكما يأخذ الرسول الكريم البيعة من الرجل يأخذها من المرأة: ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾ [سورة الممتحنة]. هكذا كانت المرأة في القرآن الكريم لها مطلق الحرية وكامل الحقوق في قضاياها الشخصية وحرية التعلم وحرية التصرف في أموالها، ومن جهة أخرى تقدم لنا المصادر الإسلامية مادة حية عن المسلمات الأوائل من خلال تفاصيل مذهلة لدقتها من جهة وموضوعية المثقفين المسلمين الذين نقلوها من جهة أخرى ولا نلمس لدى هؤلاء المثقفين

المسلمين الكبار الذين ألفوا في التاريخ أو التفسير تحاملاً على المرأة أو موقفاً مسبقاً يراها دونياً كما نجد عند الكثيرين من بعض العلماء اليوم في نهايات القرن العشرين والذين تتعالى أصواتهم لتهين المرأة في الكثير من دروب الحياة، تنقل لنا هذه المصادر صورة عن حياة المرأة التي عايشت نواة المجتمع الجديد رغم تصورات الجاهلية فقد كانت تطمح إلى تحقيق أسس جديدة لعلاقة المرأة والرجل، وعن الدور الريادي الذي مارسه معلم الإنسانية الرسول الكريم في عملية الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام لتغيير النظرة والسلوك تجاه المرأة والاعتراف بحقها الكامل في كافة جوانب الحياة. بل إن الرسول الكريم في حياته الشخصية التي لم تتسم بالتناقض والازدواجية وكانت مواقفه مع زوجاته ومع عموم النساء خير دليل على ذلك.

فها هي أسماء بنت يزيد تقول «مر علينا النبي في المسجد يوماً وعصبة من النساء قعود فألوى بيده للتسليم»[17]، وهو يحترم مطالب النساء ويستشعر مسؤوليته تجاه قيادته لأناس يخطون خطواتهم الأولى في عهد جديد وكان يدرك أن لهم الحق الكامل رجالاً ونساء في بحث قضاياهم الذاتية منها والجماعية معه وعن أبي سعيد الخدري: «قالت النساء للنبي غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك فواعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن»[18] كان عليه السلام يؤسس بذلك تصورات جديدة عن المرأة ودورها في المجتمع وجدارتها بنيل احترامه وبذلك تحدثت النساء في حضرته ولم يتحرجن في ذلك بل إنهن عرضن عليه أحياناً أكثر القضايا حميمية في حياتهن كما تورد ذلك كتب التفسير والسيرة والحديث.

وهكذا كان الإسلام في مرحلته التاريخية الأولى التي امتدت منذ ظهور الإسلام وعبر الخلافة والدولة الأموية حتى بدايات العصر العباسي حيث أنجزت هذه الحضارة الجوهر الحقيقي لتحرير المرأة المسلمة إذ كان هذا التحرير عميق الجذور شاملاً لمختلف الميادين بنظرة الإسلام للمرأة كإنسان أنثى والرجل إنسان ذكر مع التمايز في الطبيعة[19]، أما دعوة المساواة المطروحة في مجتمعاتنا

(17) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري م 5 ص 185 دار الفكر بيروت.
(18) المصدر السابق: ح 2 حديث رقم 676 ص 162.
(19) محمد عمارة: الغزو الفكري وهم أو حقيقة ص 198.

المعاصرة فلا علاقة لها بالإسلام بقدر ما هي لصيقة بالمجتمع الذي لا يعبر عن جوهر الإسلام حتى وإن انتسب إليه ظاهراً إذ تؤكد على عدم القدرة على الانفكاك من الموروثات الثقافية والاجتماعية كما أن هذه الدعوة ترتبط «بالإطار المرجعي»[20] الذي يمثل فيه الفكر الديني الإسلامي المتراكم الأساسي عبر عصور مختلفة ارتبطت بمواقف مختلفة وظروف اقتصادية وسياسية واجتماعية وحتى دينية مما ضمن الابتعاد الحقيقي لروح النص إذ أصبح مصدراً ثانوياً بعد الفكر الديني، كما ارتبطت هذه القضية بظهور مرحلة جديدة في تاريخ الحضارة الإسلامية وهي مرحلة ظهور الدويلات ودخلت المرأة في الإسلام طوراً جديداً مع امتداد الفتوحات ومواكب الإماء من نساء الفرس والروم، كذلك ظهور فرق متناحرة حيث كان أهل الشام وفرقتهم وأهل العراق وأنصارهم وأهل الحجاز وأتباعهم، والخوارج الذين خرجوا على الملوك والخلفاء ومنهم من اتجه للترف واللهو للقضاء على كل أشكال الفتن وصارت النساء تمثل شكلاً من أشكال اللهو، كذلك حكم العباسيين الذي لم يكن عهدهم إلا حكماً فارسياً يعلوه خليفة عربي[21] إذ كان الفرس هم ركن الخلافة الأساسي وهم ولاتها الحقيقيون وهم قادتها ووزراؤها وبذلك صار لزاماً أن يجلبوا معهم من أشكال الترف واللهو وما يوهن النفس ولم يمض وقت حتى صار العرب يسيرون في طريق الفرس ويسيرون على نهجهم في الفكر والفن والثقافة وكل أشكال الحياة. وكان للمرأة المسلمة نصيب في هذا السياق فانصرفت عن دورها الحقيقي تحت تأثير الجواري. ولم يكن هناك دور فعال ومؤثر للمرأة إلا من خلال هذه النماذج التي كانت تستخدم الفتنة والإغواء وإثارة شهوات الرجال وقلوبهم.

وبذلك جمع الخلفاء حولهم عدداً كبيراً من الجواري، إذ يروى عن «المتوكل» أنه وحده أهدي إليه في يوم واحد «واحد وعشرون» ألف جارية ولهن

---

(20) محمد الزيادي: مفاهيم سائدة حول المرأة في ميزان الإسلام ندوة إشكاليات الفكر الإسلامي طرابلس ـ ليبيا.

(21) عبد الله عفيفي: المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ج 2 ص 72.

بنى قصر الجعفري حين ضاقت بهن مقاصير الخلافة في بغداد[22].

ويروى عن «الرشيد» أنه أهديت إليه جارية «رائعة الجمال»، فاحتفل بها احتفالاً أخرج فيه قرابة ألفي جارية من المغنيات وساقيات الشراب في أحسن زي، وسمعت زوجته «زبيدة» بالخبر فالتهب صدرها غيرة وغيظاً، وخرجت هي الأخرى مع ألفي جارية عليهن غرائب الثياب ينشدن أناشيد اللوم والعتاب، وقد طرب الرشيد لما سمعه وقام لاستقبال زوجته ومن معها من الجواري، وقال «إنني لم أر كاليوم قط، وأصدر الأوامر إلى أحد رجاله بقوله: لا تبقَ في بيت المال درهماً إلا نثرته، فكان مبلغ ما نثره يومها ستة آلاف ألف[23]، وهكذا شهدت هذه المرحلة بدايات خطيرة في تاريخ المرأة المسلمة إنما هي تعبر عن بقايا الظلم الجاهلي.

ويشهد التاريخ أن العرب والمسلمين قد سبوا العدد الكبير من الجواري من بلدان الفرس والروم والحبش والبربر والترك، لكن الحقيقة أن هذا العدد الكبير من النساء هن اللواتي سبين العرب والإسلام وملكن أزمتهم ووطئن أكنافهم وضربن بين الرجال وزوجاتهم بسور له باب ظاهره الحسن والدلال، وباطنه الذل والمهانة[24]. لقد أثبتت هذه المرحلة انفصالاً تاماً بين جوهر الشريعة ودعوى تطبيقها مما يؤكد الروح الجاهلية التي تطلق لعنصرية ونرجسية الرجل العنان، فيغتصب حقوق النساء.

وهكذا انطلقت المرأة ضمن حدود أقبية المنازل وشبكة نوافذ المشربيات وانتهت فترة تفاعلها مع الحياة العامة التي ابتدأت مع صدر الإسلام وحتى عصر «هارون الرشيد»، فالنماذج النسائية التي كانت تحتذى كمثال كانت تنتسب إلى صدر الإسلام وليس عجزه إذ أصبحت قيمة المرأة تزداد ضيقاً في العصور اللاحقة للعصر العباسي، وليس لها إلا أن تشطب وجهها بالأحجبة الكثيفة وتختفي من الحياة اليومية داخل قوقعتها «الملاءة السوداء». لقد كان من أسباب الإهانة التي

---

(22) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ص 53 ج 2 القاهرة مكتبة الخانجي 1967.

(23) عبد الله عفيفي المصدر السابق ص 80.

(24) المصدر السابق ص 78.

لحقت بالمرأة في المجتمع الإسلامي منذ بداية عصور التفكك ظهور الانقسامات بين أفراد الدولة الواحدة، وظهور إديولوجية جديدة هي إديولوجية التبرير، فعندما تولى الخلافة «أبو العباس» ومن بعده أخوه «أبو جعفر المنصور» وقفا مع أتباعهم في مواجهة «العلويين»، الذين خرجوا مع إمامهم محمد بن الحسن لمواجهة أبي جعفر، وتساجل الفريقان لكسب عطف عامة الناس من المسلمين، وكان لكل منهما هدف محدد وهو تأكيد قرابته للرسول الكريم، وتأكيد أحقيته بالتالي في تولي الخلافة، وهنا فاخر محمد بن الحسن بانتسابه إلى «فاطمة» و«خديجة» وجاءت إجابة أبي جعفر في خطاب كان واضحاً في استهانته بالنساء. . . ولم يجعل الله النساء كالعمومة[25]، ومن هنا بدأ أتباعهم يتناولون أمر المرأة بالتهوين والنسب إليها بالوهن، وزاد الشعراء في تأكيد هذا الأمر خدمة للسلطة والسلطان، وكان الخلفاء يبذلون المال في سبيل تلك التبريرات وإقناع الناس بأحقيتهم في السلطة على حساب الاستهانة بكل شيء، حتى ولو كان دور المرأة ومكانتها.

وهكذا استمر شعراؤهم يتداولون هذه المعاني تزلفاً لبني العباس واستدراراً لأموالهم، وبذلك كان محرك هذه الطوائف في عدوانها على المرأة والتقليل من شأنها إنما هو حب السلطة والرغبة في استبقائها حتى لا ينازعهم «بنو عمهم» زمام الملك باسمها، وحتى عندما استخدم هؤلاء الأمراء الجواري والإماء في تصريف قيادة الملك وزمام الرعية، إنما كان ذلك لسيطرة نزعات الهوى ونزوات النفوس وليس إكباراً للمرأة ولا تنويهاً بشأنها.

وهكذا وبعد انقضاء القرن الثالث الهجري انقضى ذلك الدور الريادي للمرأة الذي مارسته بفضل ذلك التطور الكبير الذي جرى على أخلاق مجتمع قريش، وبعد الهجرة من مكة إلى المدينة حين كانت المرأة أشد وثوقاً من ذاتها تملك حضوراً كبيراً في الحياة العامة، بعد أن تعدلت نظرة الرجال والنساء إلى كل تلك القيم النبيلة، والتي غيرت مجرى التاريخ والأحداث، ومنذ نهايات القرن الثالث الهجري انقضى عهد المرأة المبدعة، إذ إن العصر العباسي الذي بلغت فيه

---

(25) أحمد أمين: ضحى الإسلام ج 3 ص 99 لجنة النشر والتأليف 1933 القاهرة.

الحضارة العربية أوجها واعتبر المؤرخون بغداد المنصور حاضرة العالم الأول ومثلهم المستشرقون أمثال «كارل بروكلمان»، فلم يأت واحد منهم على ذكر امرأة واحدة حكمت تلك البلاد أو بلغت مبلغاً مرموقاً في الأدب والفلسفة والطب وسائر العلوم[26].

وهكذا صار التفريط في حقوق المرأة، تلك التي وضعها الإسلام باعتبارها أموراً طبيعية للمرأة المسلمة، وصار البعض من الناس تحت تأثير إديولوجية التبرير والتسويغ المطروحة، يرجعون حال المرأة إلى سوء تصرفها ولؤم غريزتها ونقص عقلها، حتى زوروا الأحاديث عن الرسول الكريم وصار لزاماً حجبها عن العيون والأنظار، بذلك صارت تعزل في الصفوف الخلفية أو في المقصورات المحجوبة، وبعض الفرق كانت تمنع دخول المرأة ولا يسلم عليها الرجل مهما كانت قرابته منها حتى لا تفسد الوضوء والصلاة، وهكذا ولتأويلات الفقهاء وتفسيراتهم كان القرن الخامس الهجري هو البداية لغياب المرأة عن التاريخ، هذه المرأة التي أعطى لها الإسلام مطلق الحرية في المشاركة في الحياة العامة وفي الدعوة إلى الإسلام، «فهذه فاطمة بنت الخطاب»[27] أخت عمر كان لها أكبر الفضل في انضمام عمر إلى صفوف المسلمين حتى تحققت أمنية الرسول الكريم، وهذه «صفية بنت عبد المطلب» تقف في غزوة الخندق تقاتل. يحدثنا عنها «ابن هشام» مقارناً بينها وبين «حسان بن ثابت» الذي لم يتمكن من مقاتلة اليهودي فضربته وقطعت رأسه ثم رمته من أعلى الحصن، فأدهش ذلك اليهود وتفرقوا خائفين[28].

هذا الجانب يجعلنا نقف أمام شهادة معاصرة حول دور الإسلام في تحرير المرأة فالإسلام جاء بمثابة أضخم ثورة اجتماعية في تاريخ الأوضاع النسائية... إذاً هو يعترف بكامل آدميتها وحقوقها ويسلحها بالاستقلال الاقتصادي في أوسع معانيه ويحررها من ولاية الرجل فيما يتصل بجواهر الحقوق كالتعليم والبيع والشراء

---

(26) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ترجمة عبد الحليم نجار ج 2 ص 8 القاهرة دار المعارف 1961.

(27) محمد عمر كحالة: أعلام النساء ح 8.

(28) سيرة ابن هشام ح 2 ص 143.

والعمل والتجارة بل وأشركها في تدبير شؤون الدين والسياسة[29]. وهكذا بعد هذه الثورة الاجتماعية واليقظة الدينية التي أكدت على مكانة المرأة واستقلاليتها جاء وقت صارت فيه المرأة متهمة بقصور العقل والعاطفة، والكيد والضعف مع الفتنة والإغواء، وصارت هذه الدعوة تمثل اتجاهاً عاماً للسياسة الاجتماعية، مرسومة لتحقيق أهداف تناضل من أجلها المؤسسات الدينية والعسكرية بكافة الوسائل فاتخذت من الهيمنة الاستعمارية العسكرية الوسيلة لمصادرة ذلك التاريخ بصفحاته المشرقة وإعادته على شكل ممسوخ وتعطيل ثقافته.

كما كانت الطبقية والشكل العام للسلطة في ظل هذا النظام هي الأساس للتفرقة والتسلط، إذ يكون توزيع الثروة من خلال الاستحواذ الكامل وفي الاتجاه المقابل تكون السلطة «الأبوية»[30] الأداة لتأكيد الطبقية السائدة من خلال تحرير قيم هذه السلطة والدفاع عن مصالحها. كل ذلك كان بسبب ظاهرة التخلف التي صارت السمة المميزة في مجتمعنا الإسلامي وتشترك في ذلك كافة أقطار العالم الثالث على كافة المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وكان من أبرز أشكال التخلف الموقف من العنصر البشري، فالإنسان لا قيمة له في برامج التنمية والتقدم إلا من خلال قدرته على استجلاب المال وتكديس الثروة لصالح فئة قليلة من المجتمع، وهنا يتضح بتلقائية أن المرأة في هذا الإطار الفكري هي العنصر الأكثر إهمالاً في هذا السياق، ووفق هذه الرؤية المتأزمة انتشرت تبريرات وتفسيرات تؤكد عدم المساواة والتفرقة بين البشر ولأسباب غيبية طبيعية، إذ كان لا بد للطبقية والهيمنة أن تستمر فالمجتمع بكامله في خدمة الأقلية المتسلطة والمترفة، والمرأة في خدمة الرجل على حساب إبداعها وكرامتها.

هذه التبريرات شكلت إيديولوجية تسعى إلى استغلال الدين بتأويلات رجاله ومؤسساته كأداة لتسويغ تسلط الرجل على المرأة واستغلال طبقة لطبقة أخرى وهكذا كانت الفئات التشريعية والتنظيمات الدينية والمؤسسات لا تبرز من الدين

---

(29) أمينة السعيد: المرأة العربية وتحدي المجتمع «الندوة اللبنانية» السنة 21. النشرة 11. 1967 ص 11.

(30) Fatime Mernisse, Beyond the Veil: Male, Female Dymaces in a Modern Muslim Society, p. 83, New York 1975.

سوى الجوانب التي تؤكد سلطاتهم وتعزز العرف السائد والنظام الشائع من خلال أساليبهم في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وتؤكد ضرورة الاستسلام للأمر الواقع وتقبله وتحث على الاستكانة والخضوع لهذا الواقع وكان الهدف من ذلك «لتحصيل التغلب والرئاسة على عامة الناس»[31] وللحصول على المزيد من الامتيازات والمكاسب وكل ذلك باسم الدين.

أما الجوانب الثورية في الدين مثل الحرية والإبداع والتغيير والعدل والتصدي لصور الاستغلال والتسلط فيسدل عليها ستار كثيف من التعتيم ويصبح كل ما هو عصري يساعد الإنسان على الثورة لتحرير ذاته من الخوف والتسلط وامتلاك زمام مصيره بدعة وكل تأكيد على الحق والعدل والحرية والتمرد هو تفسخ ديني وانحلال، ويتحول الدين بذلك إلى وسيلة للاستبداد والتسلط على المغبونين، وهذا أفعل سلاح لدفع الأفراد إلى الاستسلام والإذعان لأنه يهدد أملهم الوحيد في الخلاص والعزاء في ثواب الآخرة ويجعلان فقط حياة القهر والتسلط ممكنة.

وهذا ما نادت به حركات التجديد والإصلاح الديني من رفاعة الطهطاوي وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد عبده والأفغاني، حتى جاءت كتابات قاسم أمين تترجم هذه الدعوات الإصلاحية لتحرير المرأة ورفضها لصور الاستغلال والاستعباد، أما في المراحل اللاحقة وضمن ذلك الخط فقد ظهرت قضية المرأة في إطار «ما يسمى بحركات التحرر النسائية» والتي احتذت بحركات تحرر المرأة الغربية، حيث نجد لهذا الاتجاه امتداداً واسعاً في المجتمعات الإسلامية، حيث تنزع جميعها إلى تصوير قضية المرأة على أساس الصراع بين الرجال والنساء واتخذت من الحضارة الغربية منطلقاً لهذا التحرير، وهنا تكمن مشكلة المرأة المسلمة في مجتمعاتنا المعاصرة[32]، فالمرأة في الغرب والتي اتخذت كمثال ونموذج للمرأة المسلمة لا زالت تعاني من سلبيات عديدة رغم تقدمها المزعوم في مجال العلم والتقنية فهذه أمريكا زعيمة العالم الحر.. نجد أن المرأة هناك تؤلف

(31) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد فصل «الاستبداد والدين» ص 3934 دراسة موثقة بالنصوص بيروت 1982 وقارن الأعمال الكاملة للكواكبي تحقيق محمد عمارة.

(32) محمد عمارة: الغزو الفكري وهم أو حقيقة ص 199.

نسبة 40٪ من مجموع المرأة العاملة، بل إن هناك مجالات لم تستطع المرأة بعد أن تخوضها، مثل فروع الطب كالجراحة، على الرغم من زيادة إقبال المرأة في أمريكا على التخصص في هذه المرحلة، فإن نسبة عدد النساء المشتغلات بالعلوم 10٪ من مجموع العلماء. كما أن عدد النساء اللواتي حصلن على درجات عليا في الماجستير والدكتوراه أقل بكثير، بل إن الأكاديمية القومية للعلوم تضم 800 من العلماء بينهم تسع فقط من النساء، وذلك نتاج لاعتبار المرأة لديهم كائناً قاصراً دون الرجل في الاستمتاع بالحقوق المدنية والاقتصادية والسياسية، بل إنه في عام 1857 م شهد التاريخ الأمريكي إضراباً من العاملات في المصانع طلباً للمساواة في الأجور وتحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية(33).

أما في انكلترا فحتى منتصف القرن الثامن عشر بقي القانون الإنكليزي الصادر عام 1850 يعامل المرأة كائناً غير معدود من البشر أو المواطنين وليس لها أي حق مالي أو شخصي بل وحتى وقت قريب، كانت المرأة تباع في إنكلترا، فيما بين القرن الخامس عشر والتاسع عشر وذلك بشهادة أحد علماء الاجتماع «هربرت سبنسر» في كتابه وصف علم الاجتماع(34).

أما في فرنسا فالاجتماع المشهور الذي عقد في نهايات القرن الخامس عشر في بعض ولاياتها الذي دار فيه البحث عن المرأة، هل هي إنسان أم غير إنسان؟ واتفق الحاضرون على إنسانيتها ولكنها خلقت لخدمة الرجل وظلت الأمور هكذا حتى عهد الثورة الفرنسية، التي لم تستطع قوانينها النابليونية المدنية الصادرة عام 1804 أن تغير من وضع المرأة، بل لقد أكدت على النزعة الفردية واستبداد سلطة الرجل وحقه في تملك المرأة، وحرمت المرأة من كافة حقوقها حتى التعليم ولم يسمح لها إلا بفنون الرقص والغناء، وفي عام 1938 صدرت الجريدة الفرنسية للقوانين قانوناً يمنع المرأة من توقيع الصكوك وفتح حساب جار في أي مصرف لها، ومن توقيع أي عقد مالي ومن استيلائها على الإرث.

---

(33) عمر رضا كحالة: المرأة في القديم والحديث ح 3 ص 71 مؤسسة الرسالة 1979.

(34) المصدر السابق ح 2 ص 150.

هذه القوانين جاءت تترجم مقولة نابليون «إن الطبيعة هي التي جعلت من نسائنا عبدات لنا» كذلك ترجمت أراء فلاسفة فرنسا العظماء أمثال «جان جاك روسو» و «بلزاك» و «برودون»[35]، وهكذا كانت شرائع أوروبا، متخلفة اثني عشر قرناً عن الإسلام في الاعتراف بحقوق المرأة في الملكية والتصرف في كل جوانب حياتها، إذ إن قرار المنظمة الدولية للأمم المتحدة الذي جاء بالدعوة إلى القضاء على كل تمييز بحق المرأة كان متأخراً جداً، صدر عام 1967 م!! واجب القول في هذا السياق أن الجاهلية اليونانية والرومانية، هما الأساس الحقيقي فيما يسمى الحضارة الأوروبية المعاصرة وذلك ما تعترف به المصادر الأوروبية، وإن كانت بطبيعة الحال لا تسميها جاهلية وإنما تسميها حضارة[36]، فالمرأة في القوانين الرومانية لم يكن مسموحاً لها بالتعليم وهي عند اليونان مسلوبة الإرادة والحرية، بل لقد عارض كبار الفلاسفة فكرة تعليم المرأة على اعتبار أنها ناقصة وهي «شجرة مسمومة»، وحتى في مدينة أفلاطون الفاضلة هي كائن شرير وهي مصدر لكل أزمات العالم، ولذلك لا بد أن تعزل في مكان منفصل قليل النوافذ محروس الأبواب.

ورغم أن اليونان قد جمعوا بين الفلسفة والعلم إلا أنهم لم يعطوا للمرأة أدنى حقوقها، بل لقد خلت مجالسهم الفلسفية والفكرية من النساء[37].

أما في أديان الصين والهند الوضعية فقد اعتبرت المرأة متاعاً للبيع والشراء، وهي في قوانين «مانو» الهندوسية تظل طوال عمرها تحت سيطرة الرجل بنص المادة 174. وإذا مات زوجها فإنها تبقى دون غذاء حتى تموت أو تدفن حية، بل إن الوباء والموت والجحيم والسم والأفاعي والنار هي خير من المرأة[38].

أما في الديانتين المسيحية واليهودية، فلم يكن حال المرأة أفضل منه في المراحل السابقة، فقد حرفت وغيرت بالكامل لخدمة أهداف ومصالح وقضايا

---

(35) مجلة الآفاق: مايو 1975 ص 57.

(36) سيد قطب: جاهلية القرن العشرين دار الشروق 1981 ص 24.

(37) هنريّ ماريون: خلق المرأة ترجمة أمين زيدان دار الرائد بيروت ص 20.

(38) إحسان حقي: كتاب الهندوس منو سمرتي دار اليقظة بيروت ص 213.

محددة ـ ليس المجال لذكرها هنا ـ فقط ما يتعلق منها بالمرأة، ففي العهد القديم: المرأة تمثل الرجس والإثم والنجاسة ولا بد من عزلها[39]، وما قصة آدم وحواء والضلع الأعوج إلا أسطورة تاريخية سخرت لتأكيد هذا الإرث الثقافي في التسلط والاستخفاف بالمرأة وفي الكنيسة المسيحية والتي استخدمت أناجيل متعددة كنصوص دينية ـ وكلنا لا يغفل الحال الذي آلت إليه الأناجيل بعد ظهور الكنيسة، فالمرأة التي أنجبت المسيح عليه السلام وقدرها سبحانه وتعالى بحمل مسؤولية ولادته أصبحت وفق رسائل قديسيهم ورسلهم[40] رجلاً ناقصاً، وهي وفق آراء فيلسوف الكنيسة القديس «توما الأكويني» كائن عرضي جاء إلى الوجود عن طريق العرض لا قيمة لها ولا شأن وهي جسد بلا روح[41].

وهكذا لا نستغرب كيف أن القوانين الأوروبية في الغرب لم تعترف بمكانة المرأة وقدسيتها والتي جاءت نتاجاً وترجمة لتلك النظرة السابقة لطبيعة المرأة رغم صرخة الإسلام التي دوت في أرجاء الكون، وبذلك كان طبيعياً أن تكون ردة الفعل بهذه القوة حيث ظهرت فكرة تحرير المرأة في الغرب، دعوة تناست كل القيم والمعاني وارتبطت بالاتجاه الرأسمالي وحركة الصناعة وسيطرة الطابع المادي على الحضارة الغربية، وأصبح تحرر المرأة يعني الانفلات الذي لا تلزمه شريعة إلهية ولا يرتبط بقيم الدين واعتمدت مبدأ المساواة التامة، فحلت محل الرجل وأقحمت في كافة ميادين العمل، وتوهمت بذلك أنها قد حققت الانتصار وهو التحرر والحصول على مكاسبها.

هكذا جاءت فلسفاتهم وأطروحاتهم الفكرية في ميدان المرأة انطلاقاً من هذه الظروف ونتيجة لهذه المعطيات، والغريب أن ينتقل ذلك الأمر إلى المرأة المسلمة في المجتمع المعاصر رغم اختلاف المعطيات وتباعد الظروف، والواضح أن حرية المرأة في الغرب لم تكن مطلوبة في حد ذاتها كإنسان بل لتحريرها من البيت العائلي والارتباط الأسري وتقديمها قرباناً إلى المصنع فكانت بذلك أولى ضحايا

---

(39) سفر الجامعة الإصحاح السابع.

(40) رسائل بولس في مواضع عديدة وانظر هنري ماريون: خلق المرأة ص 22.

(41) حسن حنفي: نماذج من فلسفة العصر الوسيط ص 85 بيروت 1981.

المجتمع الغربي والثورة الصناعية، إذ مع شروط العمل القاسية التي سببت للمرأة الشقاء فإن أجرها كان لا يعادل نصف أجر الرجل، وهكذا كانت طبيعة الحركات التحريرية تنطلق من دعوة مشاركة المرأة في العمل لأن ذلك يمثل قوة إنتاجية هائلة تخدم قاعدة الانتاج والاستهلاك، وهكذا صارت المرأة قيمة كمية تستمد منها أهميتها وجاءت بذلك شعارات حركات التحرر النسائية مؤشراً واضحاً على خيبات الأمل التي أصابت المرأة الغربية في مسيرة كفاحها، وخير دليل على ذلك الدعوات والكتابات التي ارتكزت على تجاهل المعطيات البديهية الطبيعية حول مسألة المساواة والتمايز، مثل كتابات سيمون دي بوفوار وخاصة كتابها «الجنس الثاني» الصادر عام 1949 والذي اعتبر إنجيل الحركات النسائية، وكتاب الألمانية «اليس سفارتز» الموسوم «فارق طفيف ونتيجته ضخمة».

في هذا السياق لا نغفل كتابات ماركس «وانجلز» و«فرويد» حول قضية المرأة والتي كانت متطرفة ومرتكزة على تسليط الضوء على تلك الانعكاسات النفسانية للاختلافات الجسمانية بين الجنسين من خلال مفهومي الذكورة والأنوثة، والرؤية إلى طبيعة المشكلة من خلال إطارها الاقتصادي، وبسبب هذه الرؤية المتطرفة لقضية المرأة ومشكلاتها في الغرب، فإنها لن تجني من وراء هذه الدعوات أي عمل إيجابي يخدم المرأة وقضاياها بل تسير بحركات التحرر النسائية في غير الاتجاه الصحيح.

خلاصة القول إنه يمكن النظر إلى واقع المرأة المسلمة ومشكلاتها، ضمن إطار شائك وأسس مختلفة، ففي الأساس الأول ارتبط واقع المرأة المسلمة بالاستلاب والتغريب والارتماء الكامل في فلسفة الغرب نحو تحرير المرأة، وهذه نتيجة طبيعية لسنوات الاستعمار إذ ما نجح فيه الاستعمار وهو تطويع نفسية المرأة المسلمة حتى أصبحت تتخذ من المرأة في الغرب النموذج لتحدد من خلال مفاهيمها وتحررها في الفكر والسلوك، وانفصلت عن واقعها الاجتماعي وعن الخط الديني الصحيح، كما جاء به الإسلام وجاءت به دعوة الرسول الكريم واعتبر الدين هو السبب في تخلف المرأة ودونيتها.

أما الأساس الثاني الذي كان عميق الأثر في واقع المرأة المسلمة فقد ارتبط

بالدعوة للتغيير ورفض الواقع المتردي للمجتمع الإسلامي بشكل عام وللمرأة بشكل خاص، وذلك من خلال التجارب والأفكار الثورية التي تم قمعها ومحاربتها باعتبارها تدعو للعدالة والحرية والمساواة، وتمثل الرفض والخروج على النمط السائد للثقافة الإسلامية والمضطهدة للمرأة، هذه الدعوة ارتكزت على أصوات المصلحين الأوائل، أمثال رفاعة الطهطاوي وقاسم أمين ومصلحي عصر النهضة والتجديد، من أمثال الكواكبي والأفغاني ومحمد عبده.

وكان الأساس الثالث لواقع المرأة المسلمة أشد خطورة وأكثر تأثيراً، فقد تعامل مع قضية المرأة «الحريم» كما هي عند ذوي النفوذ من السلاطين والأمراء، وأصبحت النساء تمثل نمط نساء الباشوات والولاة في عصور الأتراك، وفرض الحجاب الأسود والكثيف، واستعملت المرأة كمتاع للمتعة والترفيه تطبق ما قاله الإمام الغزالي[42] «إن القول الجامع في آداب المرأة أن تكون قعيدة بيتها لازمة لمنزلها، وإن خرجت فهي متخفية... ولا يسمع صوتها وتكون قانعة من زوجها تقدم حقه على حقها... وهي في كل الأحوال للاستمتاع بها إن شاء، وقد سمي الرجال قوامين على النساء لأن كيدهن عظيم والغالب عليهن سوء الخلق وركاكة العقل»، استمرت هذه النظرة حتى بين المفكرين الذين احتوت كتاباتهم بعض الجوانب التقدمية فهذا «العقاد» يقول «إن المرأة ذات تكوين عاطفي شبيه بالطفل، ولذلك جعل الله الرجال قوامين على النساء وهي سهلة الجري وراء المحرمات لذلك وجب قمعها»[43].

ومن هنا وفق هذه الإطارات الفكرية ووفق المصالح السياسية والأهواء والنزوات ظهرت تأويلات جديدة استغلت الدين ووظفتها المؤسسات الدينية رغم أخطائها في العديد من المجتمعات الإسلامية، فهذه فتوى من إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد تقضي بعدم جواز قيادة النساء للسيارات، وذلك للمحافظة على الدين ومنع بوادر الشر[44] وهذا الشيخ (جاد الحق علي جاد الحق)

---

(42) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى ح 4 ص 42.

(43) عباس العقاد: المرأة في القرآن القاهرة دار الهلال 1971 ص 29.

(44) فتوى الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز: الرئيس العام لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد مجلة اليوم السابع ديسمبر 1990.

شيخ الأزهر يقول عند هذا الإجراء بأن هذه الفتوى هي أمر تنظيمي إذ يرى أولو الأمر منع النساء كمنع الصغار مثلاً من قيادة السيارات خشية عليهن أو لأنهم يعتقدون أن النساء غير مؤهلات للقيادة وتحمل مشاقها، وهو يرى هذا الإجراء ليس فيه هضم لحقوق المرأة لما فيه من حفاظ على مصلحتها ومصلحة المجتمع[45].

وهكذا كان طبيعياً هذا الانسجام بين المؤسسة السياسية ورجال الدين وصار بذلك المجتمع الإسلامي يسير في خطين:

الظاهر للعبادة من جهة ويندرج في مساحته رعية متمثلة لأحكام فقه ديني منقطع عن الحاضر متصل بأشد مناطق الفكر الإسلامي ظلاماً، والحيز المخفي في هذا الاتجاه يحتله إسلام ذوي السلطة والمال والتأويل، يحللون لأنفسهم الترف والبذخ، ويحرمون على رعيتهم العمل والتعليم وهم بذلك يعيدون للتاريخ جاهليته بل هم يؤسسون جاهلية جديدة تتخذ الدين خادماً للسلطة ملطخاً بأوحالها ووسيلة ضغط وإرهاب. وبذلك تكتسب السلطة شرعيتها المطلقة وتمارس كل أنواع الإقطاع والاحتكار، فيصبح قدر الجماعة مرهوناً بسيادتها ومزاجها فباسم الدين يتم نهب أموال العامة وتنتهك حريتها الاجتماعية شرطها الإنساني لصياغة الحاضر والمستقبل.

---

(45) من لقاء أجرته مجلة شهرزاد مع شيخ الأزهر العدد 34 السنة الرابعة يونيو 1991 ص 16 و 18.